حرمان بحرمان

اللهم أعط مُنفقًا خلفًا ، وأعط مُمسكا تلفًا .

دعوةٌ استجابها الله ، فأصاب أهل مكة بالقحط . فأجدبت السماء والأرض لمّا كنزَ الأغنياء على الفقراء ،وحرموهم نصيبهم الذى فرضه الله بالزكاة .

ونزل القرآن

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾

(القلم الآية ١٧)

فَحَرَمْنَاهم حِرمانا بحرمان .

* * *

هذه الجنة ، كانت باليمن ،ضاحية من ضواحى صنعاء ، وكانت لرجل صالح كريم ، يجعل للفقراء نصيبًا من جنته ، ويحدد نصيبهم بالثمار التى يُسقطها الهواءُ ، والتى يفوتها مِنجل الحصاد ، والتى تقع بعيدًا عن البساط الذى يفرش تحت الشجر ليسقط عنه الثمر . إنما هو نصيب الفقراء ، يدعهم يلُمونه ويأخذونه .

فكانت زكاة ،وكانت بركة ، والزكاة نماءٌ وزيادة .

* * *

فلما مات ، ورثه أبناؤه فى تلك الجنة ، وكانوا أشحاء بخلاءَ .

فاستكثروا نصيب الفقراء ، وبخلوا عليهم به ، وتشاوروا فيما بينهم أن يجمعوا ثمارهم فى فجر النهار ،قبل أن يصحو الفقراءُ ، وقبل أن يقفوا لهم على باب الجنينة ، وقبل أن يتورطوا بين حرمانهم وبين إعطائهم ، كما كانوا يأخذون .

* * *

ولم يكن رأيهم بالإجماع ،فقد استحسنه ووافق عليه بعضهم ، وتوجَّس منه وخاف عاقبته أخوهم وحذرهم أن ينقضوا عهد أبيهم ، وأن يبطلوا سنة حسنة سنَّها لهم ، وأنذرهم غضب الله عليهم ، إن هم أغضبوه ، بحرمان الفقراء ، والفقراءُ عيال الله .

* * *

وبهذا الخلاف فى الرأى ، لم ينتهوا إلى إجماع ،ولم يُشفعوا مشيئتهم هذه بمشيئة الله ، ولم يقولوا إن شاء الله هذا وَفقنا إليه ، ومكننا من تنفيذه .

﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾

(القلم الآية ١٧)

ويجنون ثمارها

﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾

(القلم الآيتان ١٨)

وهل جزاء إحسان أبيهم إلا الإحسان ، وجزاءُ بخلهم وشحهم إلا الحرمان ؟

* * *

وناموا على نيَّتهم هذه ، ولكن عين الله لا تنام ، فأرسل على الجنة غضبه ،

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾

(القلم الآية ١٩)

﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾

(القلم الآية ٢٠)

كالْحِمل المصروم ،الذى تفككت حباله : وهو على ظهر الجمل أصبحت مَجْنِيَّةً . مجردة من ثمارها ، سوداءَ جرداء كالليل فى ظلمته ، وكالرمال المحرقة فى صحراء تكويها شمس حارقة .

* * *

﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۝٢١ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ۝٢٢ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾

(القلم الآية ٢١-٢٣)

يكلم بعضهم بعضًا همسًا خافتًا ، حتى لا يسمع المساكين ، وقبل أنْ يَصْحُوَ الفقراءُ المحتاجون

﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾

(القلم الآية ٢٤)

وهم يعتقدون أنهم على حَرْد الفقراءِ وَنكَدِهم قادرون .

وما كان أشد انزعاجهم وفجيعتهم حين رأوها .فقد اتهموا عقولهم بأنها تاهت وضلَّت ، وأن أبصارهم عَمِيَتْ عن الطريق

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾

(القلم الآية ٢٦)

ولما أفاقوا ، وعرفوا أنها هى حديقتهم ، وأن هذا هو طريقهم ، وأنها الحقيقة الفاجعة ، والضربة القاصمة ، وأن الحرمان لا يولّد إلا الحرمان قالوا :

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾

(القلم الآية ٢٧)

بل لقد كُتِبَ علينا ، أن نُجْزى بجزاءٍ من جنس أعمالنا وإنما الأعمال بالنيات وقد نوينا أن نحرم ، فأخذنا الله بنيتنا .

* * *

حينذاك خرّوا نادمين آسفين ، مسبِّحين معترفين أنهم كانوا ظالمين . ظلموا أنفسهم ، وظلموا أباهم ، وظلموا الفقراء ، وظلموا هذه الجنة حين استنزلوا عليها غضب الله .

* * *

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ۝ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾

﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ ﴾

(القلم الآيات ٣٠-٣٣)

* * *